ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى ؟

معترك من الروايات والأساطير المدهشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ من الهجرة (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم بأمر الله يطوف كعادته فى شعب القطم حيث اعتاد أن يرصد النجوم ، ثم لم يعد من جولته قط ، ولم يعرف إنسان خبره أو مصيره قط ؛ وكل ما عثر عليه بعد ذلك من آثاره ، حماره الأشهب وقد وجد معرقباً فى طريق حلوان ، ثم ثيابه مزرورة وبها آثار الطعان فى بركة قريبة من حلوان

بيد أن اختفاء الحاكم فى تلك الليلة الشهيرة ، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة ، لم يكن خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه . أجل أعلنت وفاة الحاكم ، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه فى كرسى الخلافة ، وذلك يوم النحر (١٠ ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه ، ولقب الظاهر لاعزاز دين الله ؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً ؛ ولكن ذكرى الخليفة الذاهب لبثت تغمر الأفق مدى حين ، وتثير فى المجتمع مختلف الفروض والأساطير . ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة ، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة ، ومن جهة أخرى فأن الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر ، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتنيض فى العالم الآخر بتلك البساطة التى أحاطت باختفائه . ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم فى الخفاء ، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب ، وترنو إلى مدارك السمو فوق البشر ؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه « ناطق الزمان » وأنه آلة وروح حل فى صورة البشر ؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه يسرى عليه قانون الفناء كما يسرى على جميع الناس ؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختلاف بينها فى مدبرى المؤامرة ومرتكبى الجريمة . ومعظمها على أن الذى دبر المؤامرة أخته الأميرة ست الملك ، وذلك لما بدا من إسرافه فى قتل الزعماء ورجال الدولة ، وما ارتكب من التصرفات العنيفة المتناقضة التى هزت أسس المجتمع وقلبت أوضاعه ؛ وأخيراً لما جنح إليه من حماية الدعاة الملاحدة الذين نادوا بألوهيته ؛ فهذه الأسباب حسبما تقول الرواية هى التى حملت أخته على تدبير مصرعه اتقاء لنشوب ثورة تودى بالعرش وبتراث الدولة الفاطمية كله ؛ أما شريك ست الملك ومنفذ الجريمة ، فهو الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة ، وكان يخشى سطوة الحاكم وفتكه ؛ وأما القتلة فهم عبيده أو هم جماعة من البدو اعترضوا الحاكم فى طريقه ليلة اختفائه بحجة التماس الاحسان والصلة ، ورتبهم المتآمرون لقتله ؛ أما جثته فقد حملها الجناة إلى أخته فدفنتها فى نفس مجلسها : هذا ملخص ما تقوله الرواية فى شأن المؤامرة والجريمة

وهذه الروايات ليست موضوعنا فى هذا البحث ؛ وهى ليست كل شىء فى تلك المأساة العجيبة ؛ وإنما نعنى فى هذا البحث بطائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة ، لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة ، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية ، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لوناً من الخفاء الغامض ، كذلك الذى يغمر شخصيته وحياته كلها ؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح فى مجموعها إلى نوع من الأسطورة ، فأنها مع ذلك تدخل فى عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة ، خصوصاً ، وأن ماتقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس فى ذاته مستحيلاً ولا خارقاً

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت فى عصر الحاكم ذاته ، ووردت ضمن سير البطاركة ، أو سير البيعة المقدسة فى ترجمة الأنبا زخاريا البطرك القبطى المعاصر للحاكم ؛ وخلاصتها ؛ أن الحاكم خرج الى الجبل ذات ليلة ، وسار فى الجبل ومعه ركابى واحد الى أن بلغ حلوان ، ثم نزل عن حماره ؛ وأمر الركابى أن يعرقبه ففعل ، ثم أمره بالانصراف الى القصر وتركه بمفرده ، فعاد الركابى كما أمر ؛ فلما لم يعد الى القصر فى اليوم التالى سأل رجال القصر هذا الركابى عن سيده ، فأجابهم بأنه تركه فى حلوان ، وعاد وحده نزولاً على رغبته ، فمضوا فى طلبه ، فوجدوا الحمار معرقباً ، وبحثوا عن الحاكم فى كل موضع ،

فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو أثر [١]

ووردت فى تاريخ الكنائس المنسوب لأبى صالح الأرمنى ، والذى كتب فى أواخر القرن السادس الهجرى رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أى حلوان) نزل الأمام الحاكم بأمر الله عن الحمار الذى كان راكبه ، وتقدم الى الركابى الذى كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار ، وذهب هو وحده إلى داخل البرية ، ولم يرجع يعود ، ولا عرف أين توجه الى يومنا هذا ، وكان ذلك فى شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة » [٢]

ويشير مؤرخ نصرانى آخر ، هو ابن العبرى الذى كتب تاريخه فى أواخر القرن السابع الهجرى إلى مثل هذا الرأى ، فيقول فى حوادث سنة ٤١١ هـ : « وفيها فقد الحاكم بن المعز ابن المعز العلوى صاحب مصر ، ولم يعرف له خبر » ، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه حسبما رواها القضاعى ، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط [٣]

وتقول الرواية الكنسية أيضا ، « ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم والى أن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة . وكثير كانوا يتزيون بزيه ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم ، يتراؤوا للناس فى الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير » ثم تروى لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانياً وأسلم ثم تعلم السحر والشعوذة ، وكان يشبه الحاكم شبها عجيبا ، ولو أنه أطول منه بقليل ؛ فلما اختفى الحاكم ظهر فى الناس باسم « أبى العرب » ، وادعى أنه الحاكم ، والتف حوله بعض الناس ، وكان يطالب الأغنياء بالمال ، ويقول لهم إنه سيعيده إليهم عند رجعته إلى مملكته ؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر ، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم ، وأنه يخفى نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه ؛ وفى أوائل عهد المستنصر ، نزح إلى البحيرة ونزل عند بعض البدو ، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر فى دعواه أنه الحاكم وأنه يعتزل الحياة العامة حتى ينتهى قطع طالعه الذى يخشاه ؛ ولما ذاع أمره ، واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار ، ولبث مختفياً حتى عرف بأمره سانوتيوس البطرك ، وأنفذ اليه مالا وتعهده بعونه ورعايته [١]

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرواية الكنسية هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجريمة ، بل لا تشير مطلقاً إلى فكرة الوفاة ، ولكنها تميل فى مجموعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء ، وتستأنس فى ذلك بالاشاعات والأساطير التى ذاعت فى ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم ، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر

على أن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد ؛ ذلك أن ابن العبرى يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفائه ، ويقول لنا إن كثيراً من الناس اعتقدوا حين اختفائه أنه لجأ إلى مكان بالصحراء واعتنق النصرانية ، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أى المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد فى مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول ، فآمن به ، وتوارى سراً فى الصحراء حتى توفى [٢]

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة — أى أسطورة تنصر الحاكم وترهبه — ليست هى الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب اليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هى تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده العزيز ، وتنصر وترهب ، ودفن باحدى الكنائس [٣]

ويجب لكى نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التى نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصرانى فى عصر الحاكم بأمر الله : فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى فى هذا العصر ضروباً مرهقة من

(١) وردت هذه الرواية الكنسية بتفاصيلها التى أوردناها فى مخطوط كنسى حصلت دار الكتب أخيرا على نسخة فوتوغرافية منه ، ويتضمن كتاب سير الآباء البطاركة تأليف ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الشهير ؛ ثم فصولا عديدة أخرى تذييلا على كتاب ساويرس فى سير البطاركة أيضا جمعت تحت عنوان « سير البيعة المقدسة » ويحفظ هذا المخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ح

(٢) تاريخ أبى صالح الأرمنى ص ٥٢ ب

(٣) مختصر تاريخ الدول طبعة اكسفورد ص ٣٣٥

٨ - ٩

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه (رقم ٦٤٣٤ ح) لوحة ٩٣

(٢) لم ترد هذه الرواية فى جميع التراجم العربية التى انتهت إلينا من تاريخ ابن العبرى ؛ ولكن الظاهر أنها وردت فى الأصل السريانى . وقد كتب ابن العبرى تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ، وأوردها المستشرق دى ساسى فى كتابه عن الدروز

(٣) كتاب الجريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ . وراجع كتابى مصر الاسلامية ص ٧٨ وما بعدها

الاضطهاد المادى والمعنوى ، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الاضطهاد الرومانى ، فهدمت بيعها وأديارها ، ونهبت أموالها ، وبدد تراثها المقدس ، وثل الأحبار كل هيبة ونفوذ ، وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصرانى من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه أقلية مضطهدة من ضروب العسف والذلة والارهاق ؛ ومن ثم فان الروايات الكنسية المعاصرة تصور لنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها ، وتحدثنا فى مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التى ظهرت فى هذا العصر ، والتى كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب ، ورسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبى نجاح النصرانى ، وكان من أعيانهم وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الاسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى ، وزعمت الأسطورة أن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه ؛ وقصة الرئيس الفهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الاسلام ، وأمر بأحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى[1] ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التى تدل على روح الكنيسة وعقليتها فى هذا الظرف العصيب ، وعلى جنوحها إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد هيبتها المقوضة ، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها

فهل نعجب إذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها ؟ إن فى تقديم الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، فى ثوب النادم المستنيب ، يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية ، ثم يترهب ، ويقضى بقية حياته فى بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين ، وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره لرعاياها فى هداية ذلك الذى أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً مديدة ، ثم انتهى به المطاف إلى أن غدا جندياً من جند المسيح .

(١) راجع المخطوط الكنسى المشار إليه لوحة ١١ و ٩٣ و ١٠٠ و ١٠٧ و ١١٠

إن فى هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم ، وأعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن تنزله الكنيسة بخصيمها

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة التى لم يؤيدها أى دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التى تنفرد بترديدها ، والتى تنم فى الحال عما وراءها من الغايات والبواعث ؛ بيد أن هنالك فى الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً يمكن الوقوف به ، وهو ما تنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الاشارة إلى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية — نظرية الاختفاء — لم تكن دون صدى فى حوادث العصر ووثائقه . وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ، واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك من أنها هى التى دبرت مصرع أخيها على الوجه الذى بسطنا ، فان الحوادث والقرائن الأولى التى عقبت ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال . ذلك أن مصرع الحاكم أو وفاته لم تكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة ، فخرجوا فى أثر الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبث الكرسى الخلافى شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذى الحجة) ، ولم يناد بالخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة أن الحاكم قد لقى حتفه بصورة من الصور أو على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة : بيد أن فكرة مصرعه ، مهما كانت الصورة التى صورت بها ، ومهما كان الجناة الذين نسب تدبيرها أو تنفيذها إليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأى السواد الأعظم من الناس . بل لقد أشارت بعض الروايات التى سلمت بمصرع الحاكم إلى صدى هذا الشك فى مقتله ؛ فنرى ابن خلكان مثلاً يقول فى ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتى : « وكانت ولايته بعد أبيه بعدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر »[1]

(البقية فى العدد القادم)

محمد عبد الله عنان

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣